

الفصل السابع

بشائر الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝٣﴾ [سورة الفتح - الآيات ١ : ٣].

١

أرى رسول الله ﷺ في نومه ، أنه دخل مكة هو وأصحابه ، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وأنه ﷺ دخل البيت واستلم مفتاحه ، ووقف بعرفات ، وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما رأى ، فاستبشروا خيرا ، وقالوا فيما بينهم :

- إنما هي مكة تفتح لنا .

اليوم : الاثنين ، الأول من الشهر .

الشهر : ذى القعدة .

السنة : السادسة من الهجرة .

أحرم رسول الله ﷺ من مسجده ، وكان قد دعا المسلمين للخروج للعمرة ، واستجاب له جمع كبير ممن دعاهم ، وخرجوا من المدينة ، وقد احرم أكثرهم متجهين إلى بيت الله الحرام بمكة ، وقد صحبوا معهم الهدى من إبل وخراف ، لا يحملون من أدوات الحرب إلا السيوف في أغمادها .
ولما بلغ المسلمون الجحفة ، خطب رسول الله ﷺ فيهم ، وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، قال مما قال :

- إنى كائن لكم فرطا ، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة نبيه .
وسمعت قريش بخروج النبي ﷺ وصحبه إليهم ، وهاجت شياطينهم ، فأهاجت فيهم الشر ، فتنادوا ، وتعاقدوا ، وأقسموا على ألا يدخل عليهم محمد ﷺ قريتهم في عامهم هذا ، وتجهزوا لحربه ، وخرجت فرسانهم ومشاتهم ، ومعهم نفر غير قليل من حلفائهم لملاقاة المعتمرين خارج مكة .
وعلم رسول الله ﷺ بما انتوت قريش . فدعا أصحابه ، وقال لهم :

- يا معشر المسلمين ، أشيروا على ، أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

- الله ورسوله أعلم، يا رسول الله، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ونرى أن نمضى لوجهتنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه.

وأيده المسلمون فيما رأى، فسأل رسول الله ﷺ عن أعلم الرجال بمساك الجبال ليتقدمهم، فقال بريدة بن الحصيب :

- أنا يا رسول الله، أعلم بها.

فقال ﷺ، وقد بدأت الشمس تميل غاربة :

-- فسيروا على اسم الله.

وسار المسلمون، متحاشين المكان الذى عسكر به فرسان المشركين، بقيادة خالد بن الوليد، وأثار الله لهم ظلمة الليل، حتى لا يشق عليهم السير بين مخانق الجبال، وبعد أن صلى بهم نبى الله ﷺ الصبح، بشرهم بأن الله تعالى قد غفر لهم جميعا ما تقدم من ذنوبهم. ثم عسكروا بالحديبية.

وجاء من تهامة رجال من خزاعة، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، ومنهم من أسلم ومنهم من وادع، وأبلغوا رسول الله ﷺ أنهم قد قدموا من مكة، وأن قريشا قد جمعت أمرها، وخرجت فى جند كثير، عازمة على ألا تدع رسول الله وصحبه يدخلون مكة، إلا بعد أن يبببوا كبيرهم وصغيرهم، فأخبرهم رسول الله ﷺ أنه لم يأت لحرب قريش، إنما جاء للطواف بالبيت، ولكن إذا صدوه عنه قاتلهم.

وزهب وفد خزاعة إلى نادى قريش، وقالوا لهم :

- إنكم لتعجلون على محمد رسول الله . إنه لم يأت لقتال، إنما جاء معتمرا.

ولم يسلم سادة قريش بصدق ما قيل، لمعرفتهم لما بين خزاعة وبين رسول الله ﷺ من ود، وبعثوا بعروة بن مسعود الثقفى ليتحرى، فجاء رسول الله وهو بين أصحابه، فقال :

- يا محمد، تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، على أعداد كمياه الحديبية، معهم أقوى انقاتلين، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، قد لبسوا جلود النمر، وهم يقسمون بالله لا يدخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت ومن قاتلهم بين أحد أمرين، أن تجتاح قومك، ولم يسمع برجل اجتاح قومه وأهله قبلك، أو بين أن يخذلك من ترى معك، وإنسى والله لا أرى معك وجوها، وإنى لا أرى إلا أخلاطا من الناس، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم، وخليقا أن يفروا ويدعوك فتؤخذ أسيرا..

وأثارت كلمات عروة غضب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فسبه سبة عظيمة، ثم قال له :

- أنحن نخذله أو نفر عنه !! .

بهت عروة من قسوة الرد، وتفاقرت شياطين الغضب متحفزة للنزال، لكنه سكت ولم يعقب، بعد أن عرف أن المتكلم كان أبا بكر، فلقد سبقت للصديق مكرمة عليه تمنعه من أن يبببأ فى حقه.

انصرف عروة من عند رسول الله ﷺ ، بعد أن أعاد عليه ما قاله من قبل ، فلما لقي سادة قريش ، وقف فيهم ، وقال :

- يا قوم ، إنى وفدت إلى الملوك : كسرى وقيصر والنجاشي ، وإنى والله ما رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرائيه من محمد في أصحابه ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، وهو ليس بملك ، فهو إذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر بشيء منه ، وإذا تكلم خفضوا صوتهم عنده ، وما يحدقون النظر إليه تعظيما له ، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن ، فإن هو أذن له . . . تكلم ، وإن لم يأذن له سكت ؛ وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

وضرب الشيطان على أفئدتهم ؛ فلم يقبلوا نصيحة عروة ، فانصرف غاضبا إلى دياره بالطائف ، بينما أجمع الرافضون على إرسال من يتحسس أخبار رسول الله ﷺ ، فبعثوا بالحليسي بن علقمة الكناني ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا من بعيد عرف صفته ، وعرف أصحابه بأنه من قوم يعظمون البدن ، ثم أمر بالهدى أن تساق في مواجهته ، فلما رآها الحليسي وقد أكلت أوبراها وعلت أصواتها بالحنين تختلط معها أصوات المسلمين بالتكبير والتلبية ، صاح قائلا :

- والله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة إن صدوهم .
ورجع الحليسي غاضبا ، ولم يواصل تقدمه ليلقى رسول الله ﷺ ، واتجه إلى دار الندوة ، وهو يغالب غضبه ، فلما جلس قال لصحبه :

- إنى رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى في قلائده قد أكل أوبراها ، معكوبا من محله ، والرجال قد شعثوا وقملوا راغبين أن يطوفوا بهذا البيت ، والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم ، على أن تصدوا عن البيت من جاءه معظما لحرمة مؤديا لحقه ، والذي نفسى بيده ، لتخليين بين محمد وما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .
فقالوا يسترضوه :

- اجلس يا حليسي ، فإن ما رأيت من محمد ، إنما هو مكيدة .

٢

وأراد رسول الله ﷺ ، أن يبين لقريش ما جاء له ، فأرسل خراش بن أمية على جمل ليخبرهم ، فعقر عكرمة بن أبي جهل الجمل ، وتكاثر المشركون على خراش يريدون قتله ، فحال الأحابيش بينهم وما يريدون ، فعاد إلى رسول الله ﷺ ونبأه بما حدث ، فقرر أن يبعث إليهم بمن هو عزيز عليهم .
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

- يا رسول الله ، هل أدلك على رجل أعز على مكة ، وأكثر عشيرة وأمنع ، وأنه يبلغ لك ما أردت . . .

عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضى الله عنه ، وطلب منه أن يبلغ أهل مكة أنه إنما جاء معتمرا يريد بيت الله الحرام ، وأن يدعوهم إلى الإسلام ، وليذهب إلى من تخفوا بينهم مسلمين يبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكا أن يظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .
وانطلق عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلقىه أبان بن سعيد ، فرحب به وأجاره ، ودخل معه مكة ، وفى المساء ، قال عثمان لمن اجتمعوا فى دار الندوة :

- إن رسول الله ﷺ يدعوكم إلى الإسلام ، ويخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمرا ، معه الهدى ، عليه القلائد ، ينحره وينصرف .

فردوا عليه قائلين :

- قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبدا ، ولا دخلها علينا عنوة ، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا .

ثم قالوا لعثمان رضى الله عنه :

- إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال :

- ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ .

وفضل عثمان أن يزور أهله بمكة فضيفوه عندهم ، وهو ما أراد الزيارة ، ولكنه أراد أن يتحرك فى حرية ليبلغ رسالة نبي الله ﷺ للمتخفين بإسلامهم ، وحين سجد الليل أمكنه الله من ذلك ، بينما بعثت قريش بخمسين من محاربيها الأشداء ليطوفوا حول جند المسلمين ، عسى أن يصيبوا منهم شيئا وهم نائمون .

كان رسول الله ﷺ قد أمر الصحابة بالحذر ، وتناوب الحراسة ليلا ، فلما قدم فرسان المشركين ، ترامى حرس المسلمين والمغيرين ، فقتلوا مشركا وأوقعوا بهم الهزيمة ، وأسروهم جميعا ، إلا واحدا منهم استطاع الفرار إلى مكة ، فنبأ أهله بما حل بفلذات أكبادهم ، فتنافرت قريش ، وخرج جمع منهم إلى الحديبية فتراموا مع المسلمين ، وتواصل نصر الله ، وأسر المسلمون منهم اثني عشر فارسا .

وأشاع بعض من الأسرى بين المسلمين ، أن قريشا قد قتلت عثمان ، فبعث رسول الله ﷺ بعشرة رجال ليدخلوا مكة سرا ، ويستطلعوا أمر عثمان ، فعلمت قريش بأمر خروجهم ، فكمنوا لهم وأسروهم ، وبلغ المسلمين أن قريشا قد قتلتهم كما قتلت من سبقوهم .

فلما وصل الأمر مسامع رسول الله ﷺ ، دعا إلى البيعة ، وقال :

- لا تبرح حتى نناجز القوم .

ويابع الناس رسول الله ﷺ ، على أن يصمدوا فى وجه المشركين حتى يأتى نصر الله ، وتجهزوا للحرب .

وعلمت قريش بتعاهد المسلمين على قتالهم، فانتابهم فزع عظيم، فها هم أولاء كلما لقوا جند الله بآءوا يخسران عظيم، حتى أخذهم الشؤم كل مأخذ فأظلمت الدنيا في عيونهم، حتى لم يعودوا يرون أنفسهم إلا أسرى عند رسول الله، ولولا بقية من الكبر، لسارعوا إليه رافعين رايات الاستسلام، وها هم أولاء يبعثون سفراءهم إلى رسول الله ﷺ، قائلين:

— يا محمد، إن أصحابك بخير، أما ما كان من حبسهم بمكة، وما كان من قتال من قاتلك، فلم يكن من رأى ذوى رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، ولم نعلم به، وكان من سفهائنا: فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة، والذين أسرت آخر مرة.

فرد رسول الله ﷺ مبعوثيهم، رافضا أن يطلق سراح أسرى قريش، قبل أن تطلق قريش سراح أصحابه.

وقد كان.

وعاد عثمان مع العشرة الذين أسرتهم قريش، بينما أطلق المسلمون أسرى قريش؛ فلما لقي جمع من المسلمين عثمان سألوه، قائلين:

— أشفيت من البيت يا أبا عبد الله؟

عقب عثمان على ما قالوا، غاضبا:

— بنس ما ظننتم بى، فوالذى نفسى بيده، لو لبست مقيما بمكة سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ، وقد دعنتى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت.

فقالوا له:

— هكذا قال رسول الله ﷺ حين بلغه ما ظنناه بك.

قال عثمان رضى الله عنه:

— صدق رسول الله ﷺ، وخابت ظنتكم.

٣

اجتمع أهل الرأى من قريش، وقد أخذ الشيطان بذيله فى خوف، وجلس بينهم مخذولا لا يوسوس، فخدمت حمية الجاهلية فيهم، ونهض العقل بدوره فى رشاد، فلم يطل نقاشهم، بل أجمعوا على مهادنة محمد، على أن ينصرف عنهم عامهم هذا، ولا يخلص إلى البيت، فتتحدث العرب بأنه قد دخله عليهم راغما لأنوفهم، أما إذا رضى وانصرف عنهم عامهم هذا، فسوف تتسامع العرب بأنهم قد صدوه صدودا، وتظل هيبتهم رافعة ألويتها، أما إذا شاء فليرجع فى قابل حسب عهدهم، فيقيم ببلدهم ثلاثا، وينحر هديه، ولا يدخل بيوتهم ولينصرف.

وقالوا لسهيل بن عمرو:

— آت محمدا فصالحه على ما اتفقنا عليه.

فلما أهل سهيل وصحبه من بعيد، على رسول الله ﷺ، قال لمن حوله:
- سهل أمركم.

جلس سهيل بين يدي رسول الله ﷺ، وجرى بينهما القول، حتى اتفقا على الصلح، وأن تمنع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضاً، وأنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه - حتى وإن كان على دين محمد رسول الله - رده إلى وليه، وأنه من أتى قريشاً ممن تبع محمداً لم يردوه عليه، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة: أن يمتنع بينهم السرقة والخيانة، وأنه من أحب أن يدخل من قبائل العرب في عقد وعهد محمد رسول الله دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عقد وعهد قريش دخل فيه.

وهنا توثب من حضر من خزاعة، وقالوا:

- نحن في عقد محمد رسول الله وعهده.

بينما توثب من حضر من بني بكر، وقالوا:

- نحن في عقد قريش وعهدهم.

كره المسلمون هذه الشروط، وامتنعوا منها، فلما جاء وقت المكاتبة، وثب عمر بن الخطاب مغاضباً، وقال:

- يا رسول الله، أأنت نبي الله حقاً؟

قال ﷺ:

- نعم.

قال عمر:

- أأنت على الحق، وهم على الباطل؟

قال ﷺ:

- نعم.

قال عمر رضي الله عنه:

- أليس قتلانا في الجنة، وقتلهم في النار؟

قال ﷺ:

- نعم.

قال عمر:

- علام تعطى الدنيا في ديننا، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟

قال ﷺ:

- إنى عبد الله ورسوله، ولست أعصيه، ولن يضيعني، وهو ناصري.

قال عمر:

- أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف حقا؟.

قال ﷺ:

- نعم، فأخبرتك أنك تأتيه العام.

قال عمر:

- لا.

قال نبي الله ﷺ:

- فإنك آتية ومطوف به، يا عمر تراني رضية وتأبى؟.

فخجل ابن الخطاب، وسكت فلم يعقب بعدما بكلمة واحدة.

فقال سهيل لرسول الله ﷺ:

- هات، أكتب بيننا وبينك كتابا.

فدعا رسول الله ﷺ عليا رضي الله عنه، وقال له:

- أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل:

- أما الرحمن الرحيم، فلا أدري ما هو؟.. أكتب باسمك اللهم.

فثار المسلمون، وقالوا:

- لا تكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال نبي الله ﷺ لعلی:

- أكتب باسمك اللهم.

فكتب علی، فقال رسول الله ﷺ:

- هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فاعترض سهيل، وقال:

- والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، أكتب في قضيتنا

ما نعرف، أكتب: محمد بن عبد الله.

قال رسول الله ﷺ لعلی:

- أمحه.

فتلكأ علی رضي الله عنه، وقال:

- ما أنا الذي أمحك.

فقال نبي الله ﷺ:

- أكتب، فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد.

ولما أراد على رضى الله عنه أن ينفذ قول رسول الله ﷺ ، أخذ أسيد بن حضير وسعد بن عباد بيده ، ومنعاه أن يمحقها ، وقال :

- هي محمد رسول الله ﷺ ، وإلا فالسيف بيننا وبينهم .

وارتفعت أصوات المسلمين مؤيدة لأبيهما ، وأخذ رسول الله ﷺ يشير بيديه ليسكتهم ، ثم طلب من على أن يريه الكتاب ، فناوله له ، فمحا رسول الله ﷺ ، وقال لعلى :

- اكتب محمد بن عبد الله .

فكتب «على» رضى الله عنه ، وحين أراد أن يستطرد كاتبا ، اعترضوا على أن يرد من جاءهم مسلما إلى قريش ، ولا ترد قريش من ذهب إليها ، فقال نبي الله ﷺ :

- نعم ، أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجا ومخرجا .
ولما قرب الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح ، إذا أبو جندل بن سهيل قد فر من القيود التى كبله بها أبوه ، ونزل على معسكر المسلمين مستنجيرا ، وكان على الإسلام ، فلما رآه سهيل قام إليه يضرب وجهه بغصن شوك ، وهو يقول لرسول الله غاضيا :

- يا محمد ، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده .

فرجاه الحبيب ﷺ أن يكف عن إيذائه لابنه ، وهو لا يستحى ولا يستجيب ، فلما أجزبه الصحابة على أن يكف يده ، أجابه رسول الله ﷺ إلى طلبه ، وقلبه يتمزق ألما ، قائلا لأبى جندل :

- اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا ، وأعطيناهم وأعطينا على ذلك عهدا ، وإنا لا نغدر .

ورجع أبو جندل مع أبيه مكبلا فى الأغلال ، والمسلمون فى غاية الحزن ، والكرب من هذه المعاهدة التى كبلتهم فلم يقدروا على نجدة أخ فى الله ، فلما نادى رسول الله ﷺ يطالبهم بنحر الهدى ، مرة ومرة ومرات ، لم يستجب أحد ، فاشتد عليه الأمر ، ودخل حزينا على زوجته أم سلمة ونباها بما كان من أمر المسلمين معه ، فقالت له :

- يا رسول الله لا تلمهم ، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم ، مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ، ورجوعهم بغير فتح ، يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلق شعرك .

فخرج رسول الله ﷺ ، فأخذ حرية وأهوى بها على البدن يذبحها ، رافعا صوته يقول :

- بسم الله ، والله أكبر .

فتواثب المسلمون ينحرون هديهم مسمين مكبرين ، وبعد أن انتهوا حلق البعض وقصر البعض الآخر ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبته ، وهو يقول باسماء :

- رحم الله المحلقين .

قال المسلمون :

- يا رسول الله ، والمقصرين .

قال الحبيب ﷺ :

- رحم الله المحلقين ، رحم الله المحلقين ، رحم الله المحلقين ، والمقصرين .

قال من سمعوا :

- يا رسول الله ، ما بال المحلقين قد أكثرت عليهم الترحم؟ .

قال ابن عباس إن رسول الله ﷺ قال لهم :

- لأنهم لم يشكوا .

وهبت الريح شديدة فحملت شعر المحلقين والمقصرين فألقته في الكعبة ، وهكذا شاء الله أن يستقر

شعرهم حيث كان يجب أن يستقر .

وجمع المسلمون أغراضهم ، وطووا خيامهم ، وأعلن عن الرحيل للعودة إلى الديار .

٤

في الطريق أصاب المسلمين الجوع ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في أن يذبحوا ما يركبون من بعير ،

فأذن لهم ، ولكن عمر بن الخطاب قال :

- يا رسول الله أنذبح ما نركب ، فنرهق بالسير ، فإذا ما لقينا عدوا لقينا جياعا رجالا ، ولكن إذا

رأيت أن ندعو الناس ببقايا زادهم فنجمعها ثم تدعو فيها بالبركة ، فإن الله سيبلغنا بدعوتك .

ودعا الناس لأن يأتوا بما لديهم من زاد ، ووضع مجموعا على بساط ، فكان قليل القليل ، فقام

رسول الله ﷺ فدعا الله بما شاء أن يدعو ، واستجاب ربه لدعائه فكثر القليل ، واجتمع الناس فأكلوا

حتى شبعوا ، ثم حشوا أوعيتهم من رزق الله ، وبقي مثل ما أكلوا وحملوا ، ورسول الله ﷺ يتبسم في

سعادة ، قائلا :

- أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله : والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما ، إلا حجب

من النار .

وأمرت السماء والوقت صيف ، فشرب المسلمون وارتوت بهائمهم ، ثم أذن للرحيل ، وفي أثناء المسير

إلى المدينة ، وسوس الشيطان لبعضهم ، فقالوا :

- ما هذا بفتح ، فلقد صددنا عن البيت ، وصد هدينا .

وهن عروة أن رسول الله قال :

- بشئ الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، قد رضى المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم ، ويسألونكم

القضية ، ويرغبون إليكم الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله تعالى عليهم ، وردكم سالمين

ماجورين ، فهو أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أحد ، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم في

أخراكم؟.. أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإن زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون؟! فقال المسلمون:

— صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا.

وأُنزل الله تعالى على نبيه ﷺ سورة الفتح، فكان أول من طلب أن يلقاه عمر بن الخطاب، وحين جلس بين يدي نبي الله ﷺ، شكر الله على ما بشره به، ثم قرأ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنِذِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيُضِرِّكَ اللَّهُ تَضَرًّا عَزِيمًا ۝٣﴾ [سورة الفتح - الآية ١ : ٣].

فقال عمر:

— صدق الله العظيم، وصدق نبيه.

٥

بعد عودة المعتمرين إلى المدينة، قدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة من مكة إلى المدينة هربا بدينها، فلقد كانت زوجة لمشرك، وحين أراد أهلها استردادها، أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُرُهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تَتَّبِعُوا بَعْضَ الْكَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَلُوا مَا أَنفَقُوا ۗ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [سورة المتحنة - الآية ١٠].

فامتنع نبي الله ﷺ عن تسليمها لهم، وبقيت بين المسلمين وقد طلقت من زوجها، ثم قدم أبو بصير عتبة بن أسيد من مكة، ماشيا على قدميه فارا من حبيس قومه له، ومعه خمسة ممن كانوا قد احتجزهم المشركون من مستضعفي المسلمين، ومكثوا بين المسلمين ثلاثة أيام، ثم وفد على رسول الله ﷺ من يحمل إليه كتابا من أهل أبو البصير يطالبونه بحق العهد الذي بينهم وبينه، أن يعيد أبا البصير إليهم، فأمر رسول الله ﷺ أبا البصير أن يعود مع الرجلين إلى أهله، بعد أن بشره بأن الله سيجعل له فرجا ومخرجا؛ وقبل أبو البصير ما أمر به رسول الله ﷺ على مضض، وقد أضمر في نفسه شيئا، وسار جمع من المسلمين يبشرونه بمقولة رسول الله ﷺ، قائلين:

— يا أبا البصير أبشر، فإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا.

وعلى رغم بشارة نبي الله ﷺ، راحوا يحرضونه على قتل من جاء لأخذه، فلما وصل ركب أبو البصير ذي الحليفة، صلى صلاة المسافر ركعتين في مسجدتها، ودعا من معه إلى الطعام، فلما أكلوا

قام رسول قريش يهز سيفه ملوحاً، ثم قال مفاخراً:
- لأضربن بسيفي هذا فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل.

فقال له أبو البصير:

- أصارم سيفك هذا؟.

قال الرجل:

- نعم.

قال أبو البصير:

- ناولنيه أنظر إليه إن شئت.

فناوله لأبى البصير، ففاجأه بضربة قتلته، فلما رأى الدليل ما أصاب صاحبه، انطلق يعدو فى هلع متجهاً إلى المدينة، وطلب من رسول الله ﷺ أن يؤمنه فأمنه، فقدم أبو البصير متمنطقاً سيف الرسول، راكباً راحلته، ووقف بين يدى رسول الله ﷺ، وقال:

- يا رسول الله، قد وفيت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن.

فقال رسول الله ﷺ:

- ويل لسعر حرب.

فلما سمع أبو البصير قولة نبي الله ﷺ، خرج فى صحبة مجموعة ممن فروا بدينهم، حتى وجدوا مأمناً فى مكان قريب من طريق البحر، فنزلوا به متحصنين، فلما سمع المحبوسون بقريش من المستضعفين بأمرهم، فروا متسللين إلى حيث أقام أبو البصير، فأقاموا معه، ووصل عددهم أكثر من سبعين رجلاً، منهم أبو جندل بن سهيل، وكان طعامهم الحيتان التى يلقى بها البحر إليهم، ثم اجتمع إليهم أناسى كثيرة، حتى أصبحوا فيما يزيد على الثلاثمائة رجل، فكانوا كلما مرت بهم قافلة لقريش أخذوا بضاعتها، وقتلوا رجالها، فضاقت قريش بصنيعهم، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يستنجدون به، ويرجونه أن يضم إليه أبا البصير وأبا جندل، ومن فر بدينه من مكة، ولا حرج عليه فيهم!.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير وأبى الجندل ومن معهما أن يقدموا عليه، فوصل كتاب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير، وهو على فراش الموت، فأخذ ينظر إلى كتاب الحبيب محمد ﷺ فى حب، حتى فارقت الروح.

ورجع أبو الجندل ومن معه إلى المدينة، وأقاموا بين أهلها.

٦

كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم، وحمل كتابه دحية الكلبي، فسلمه إلى عظيم بصرى، فأرسله بدوره إلى القيصر فى القدس، فقرءه عليه:

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام؛ أسلم تسلّم، يؤتلك الله أجره مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الآريين: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَسَبُ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران - الآية ٦٤].
فقال الملك:

- ابحثوا لنا عن أحد من قوم محمد رسول الله، نسأل عنه.

وجاءوا له بأبي سفيان بن حرب ومن معه من القرشيين، وكانوا في تجارة لهم بالشام، فطلب قيصر من مترجمه أن يسألهم:

- أيكم أقرب نسبا لمحمد؟

فقال أبو سفيان:

- أنا.

فأدناه قيصر منه، ثم أمر مترجمه أن يطلب من أصحابه، رد أبا سفيان إذا كذب في أمر من الأمور التي سيسأله عنها، ثم سأله أبا سفيان:

- كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قال أبو سفيان:

-- هو فينا ذو نسب.

قال قيصر:

- هل تكلم بما يقول محمد رسول الله، أحد منكم من قبل؟

قال أبو سفيان:

- لا.

قال قيصر:

- هل كنتم تتهمونه بالكذب؟

قال أبو سفيان:

- لا.

قال قيصر:

- فهل كان من آباءه ملك؟

أجاب أبو سفيان:

- لا.

سأل قيصر، قال:

- ومن يتبعونه : أشراف الناس ، أو ضعفاؤهم؟
قال أبو سفيان :
- بل ضعفاؤهم.
قال قيصر :
- وهل يزيدون أو ينقصون؟
قال أبو سفيان :
- بل يزيدون.
قال قيصر :
- هل يرتد أحدهم سخطا على دينه؟
قال أبو سفيان :
- لا .
قال قيصر :
- هل يغدر إذا عاهد؟
قال أبو سفيان :
- لا ، ونحن الآن معه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل بها .
قال قيصر :
- فهل قاتلتموه؟
قال أبو سفيان :
- نعم ، والحرب بيننا سجال ، مرة لنا ومرة علينا .
قال قيصر :
- فميم يأمركم؟
قال أبو سفيان :
- يقول : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبده آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .
قال قيصر :
- إنى سألتك عن نسبه ، فقلت : إنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ؛
وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فقلت : لا ، فلو كان أحد قبله قال هذا القول ، لقلت :
رجل يأتى بقول قيل قبله ؛ وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فقلت : لا ، فما
كان ليذر الكذب على الناس ليكذب على الله ؛ وسألتك هل من آباءه ملك ، فنقيت ذلك ، فلو كان من
آباءه ملك ، لقلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت : بل

ضعفائهم، فالضعفاء أتباع الرسل؛ وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون، فقلت بل يزيدون ولا يرتد أحد منهم، وكذلك الإيمان حين تخالطه بشاشة القلوب يزيد حتى يتم؛ وسألتك: هل قاتلتموه، فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة؛ وسألتك: بماذا يأمر وهل يغدر، فذكرت بما يأمر؛ وقلت إنه لا يغدر، وهكذا الرسل تأمر بالخير ولا تغدر؛ فتيقنت أنه نبي، وقد كنت أعلم أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتني به حقا فسيملك موضع قدمي هاتين. وعلا صوت من كان حاضرا من قومه مستنكرين ما قال قيصر، فأمرهم بالصمت، ثم أمر بالقرشيين فأخرجوا من المجلس.

سار قيصر إلى حمص، وقد مال للدخول في دين الإسلام ميلا شديدا، ولما وصل حمص، أمر بجمع عظماء قومه في قصر له، ثم أمر العسكر فغلقوا عليهم الأبواب، ثم عرض عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وشهادة أعدائه له، وقال:

- يا معشر الروم، هل أدلكم على سبيل الرش والصلاح، وأن يثبت ملككم؟.. بايعوا هذا النبي. وانتفض الشيطان غاضبا أشد الغضب، فتصايح الحاضرون، ونفروا غاضبين يريدون الأبواب، عازمين على الانقلاب على القيصر، ولكنهم فوجئوا بالأبواب مغلقة، فلما رأى القيصر غضب قومه مما عرض عليهم، وعزمهم على الغدر به وبسلطانه؛ قال للعسكر:

- ردوهم إلى.

فلما اكتمل شملهم، هداه شيطانه إلى أنه لا سبيل للخلاص مما هو فيه، إلا بالنكوص عما كان عازما عليه، فقال لهم:

- يا معشر الروم، إنما قلت مقالتي أختير بها شدتكم على دينكم. فلما عقلوا مقولته، ذهب عنهم الغضب، ورضوا عن مليكهم، وحمد غضب الشيطان، وتبسم منتصرا.

٧

أرسل نبي الله ﷺ رسالة مماثلة إلى كسرى ملك الفرس، قال له فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعوة الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم، فإن أبييت فعليك إثم المجوس».

فلما قرأ كسرى كتاب رسول الله ﷺ إليه، مزقه شر ممزق؛ وبلغ ما فعله كسرى رسول الله ﷺ، فقال:

- مزق الله ملكه كل ممزق.

فما مرت عليه شهور قلائل، إلا وثار عليه ابنه فقتله، وانتزع الملك منه.
كما أرسل النبي ﷺ، كتابا إلى المقوقس بن متى، عظيم القبط بالإسكندرية، فلما قرأه قال:
- ما منعه إن كان نبيا، أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟!!
فقال من حمل الكتاب:

- أأنت تشهد أن عيسى بن مريم عليه السلام رسول الله؟
قال المقوقس:

- بلى.

قال حامل الكتاب:

- فماله حين أخذه قومه ليقتلوه، ألا يكون دعا عليهم قبل أن يرفعه الله، أن يهلكهم الله؟!!
قال المقوقس:

- أنت حكيم، جنث من عند حكيم.

وكتب المقوقس ردا على كتاب رسول الله ﷺ، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله،
من المقوقس عظيم القبط؛ سلام عليكم، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو
إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وظننت أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين
لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب، وببغل تركبها، والسلام».

كما أرسل ﷺ برسلا حملوا كتبه إلى كثير من الملوك والحكام، فلم يسلم منهم غير النجاشي ملك
الحبشة، هو والمنذر بن ساوى ملك البحرين، ولقد كتب بعد إسلامه إلى رسول الله ﷺ يقول: «أما بعد،
يا رسول الله، فإنني قرأت كتابك على أهل البحرين، فكثير منهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه،
ومنهم من كرهه؛ وبأرضى مجوس ويهود، فأرسل إلي في ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، فإنني أحمد الله
إليك، الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله؛ أما بعد، فإنني أذكرك الله
عز وجل، فإنه من ينصح فلنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني؛ ومن نصح لهم فقد
نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا، وإنني شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه،
وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم، ومن أقام على يهوديته أو ماجوسيته، فعليه الجزية».

٨

الشهر: ذى القعدة.

السنة: السابعة من الهجرة.

وقد مر عام على معاهدة الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يتجهزوا للعمرة، ولا يتخلف
أحد ممن شهدوا صلح الحديبية، وطلب رسول الله ﷺ أن يكفل أهل المال من لا يملك زاده.

فقالوا:

- يا رسول الله، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً؟

فقال ﷺ:

- بما كان، ولو بشق تمرّة.

وخرج المسلمون ممن شهدوا الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد، وأحرم رسول الله ﷺ من باب مسجده، وساق معه ستين بدنّة، وصحب المسلمون معهم أسلحتهم، تحسباً لأى عدوان من الكفار، وبينهم مائة فارس، فلما طلعت بشارت الحجاج على قريش أصابهم الرعب مما رأوا، وقالوا:

- والله ما أحدثنا حدثاً، وإنا على كتابنا، ومدتنا، فقيم يغزونا محمد فى أصحابه؟! .

وبعثوا إليه بنفر منهم، فقالوا:

- والله يا محمد، ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلح فى الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلح المسافر، السيوف فى القرب.

فقال لهم ﷺ، إنه لن يدخلها عليهم بسلح، فقالوا له:

- هو ما تعرف به، البر والوفاء.

ورجعوا إلى قومهم فطمأنوهم، وكره ناس من الكفار رؤية رسول الله ﷺ فى عقر دارهم، فهجروا دورهم إلى ذرى الجبال، بينما أغلق غيرهم أبواب بيوتهم عليهم، لا يخرجون منها ولا تدخل عليهم، بينما خرج الصبية يدفعهم الفضول ينتظرون إلى ما يجرى.

دخل رسول الله ﷺ مكة على ناقته، ثم نزل عنها، واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعا، بعد أن اضطجع بأن كشف عن كتفه اليمنى، وأدخل رداءه من تحت إبطه، وحوله المسلمون يفعلون مثلاً يفعل، فرملوا ثلاثة أشواط، ومشوا بين الركنين: اليمانى والأسود وهم يرددون:

- لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

فلما انتهى رسول الله، ركب راحلته، واتجه إلى الصفا، وسعى راكباً بين الصفا والمروة، وحوله المسلمون ما بين راجل وراكب، فلما أتمها سبعا عند المروة، حيث تجمعت الهدى، حلق شعره، ثم نحر، وقال:

- هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر.

ودخل رسول الله ﷺ الكعبة بعد صلاة العشاء، فمكث فيها، حتى أذن بلال من فوق سطح الكعبة لصلاة الصبح.

ومكث رسول الله بمكة ثلاثة أيام، لم يدخل داراً من دورها، ثم غادر هو وصحبه عائدين إلى المدينة، وقد لحقت به قلوب ثلاثة من قادة قريش، بعد أن تعاقدوا على الإسلام.

يقول عمرو بن العاص رضى الله عنه:

- بعد وقعة الخندق، كنت قد عقدت العزم على الهجرة لأقيم بالحبيشة عند النجاشى، حتى إذا ظهر محمد كنت فى حمى بلد غير مكة، فحملت للنجاشى جلوداً كثيرة، فلقد كان يحب هذه الهدية،

وبينما أنا عنده، إذا برسول يأتي من عند نبي الله، فطلبت منه أن يسلمه لي لأقطع عنقه، فغضب النجاشي أشد الغضب، وقال:

- أنسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لتقتله؟!!

قلت بعد أن اعتذرت للملك لأنني أغضبتة:

- أيها الملك، فكذلك هو؟!.

قال النجاشي:

- ويحك يا عمرو، أظنني واتبعة، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرون على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

فقلت له:

- أتبايعني على الإسلام؟!.

فبسط يده فبايعني، وخرجت إلى أصحابي وكنمت عنهم إسلامي.

فلما عدت إلى مكة، قررت أن أخرج مهاجرا لألحق برسول الله ﷺ بالمدينة، وبينما أنا خارج، إذا بي أجد خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، قد سبقاني في الخروج، معا إلى رسول الله ﷺ وأعلنا إسلامنا عنده.

ولقد بادر رسول الله ﷺ فأرسلني بكتاب إلى جيفر وعباد ملكي عمان، فلما وصلت إليهما بدأت بعباد، فقرأ كتاب رسول الله، فرق قلبه بعد أن علم بمبادئ الإسلام، وقال:

-- لو كان أخى يطاوعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً.

فقلت له:

- إن أسلم أخوك، ملكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، وردها على فقيرهم.

فصحبني إلى أخيه جيفر، فتكلمت معه بما ألان قلبه للإسلام، فأسلم هو وأخوه.

٩

الشهر: جمادى الأولى.

السنة: الثامنة من الهجرة.

بعث رسول الله ﷺ سرية من ثلاثة آلاف مقاتل، للقصاص ممن قتلوا رسوله إلى أمير بصرى، وعسكر جند الله بمنطقة الجرف، فلما صلى بهم رسول الله ﷺ جلس إليهم، وأعلمهم بأن اللواء منعقد لزيد بن حارثة فهو أمير الناس، فإذا ما قتل، فلجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحه. فلما تهيأ الناس للمسير أوصاهم رسول الله ﷺ بتقوى الله، وأن يقاتلوا من كفر بالله، وألا يغدروا، ولا يغلوا، ولا يقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا صغيراً ضرعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا يغرّقوا نخلاً، ولا يقلعوا

شجرا، ولا يهدموا بيتا، ولا يتعرضوا لرجال في الصوامع معتزلين الناس.

وقال عبد الله بن رواحه:

- يا رسول الله، عظمى بشىء أحفظه عنك.

قال رسول الله ﷺ:

- أنت قادم غدا بلدا السجود فيه قليل، فأكثر السجود.

قال عبد الله:

- زدنى يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

- اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب.

ومضى عبد الله، ثم عاد لرسول الله ﷺ:

- يا رسول الله زدنى الثالثة فإن الله وتر يحب الوتر.

فقال رسول الله ﷺ:

- ابن رواحه، ما عجزت فلا تعجزن، إن أسأت عشرا فعليك أن تحسن واحدة.

١٠

لقى المسلمون طلائع جند شرحبيل بقيادة أخيه سدوس، فقاتلوهم وهزمهم شر هزيمة وقتلوا «سدوس»، ثم بلغهم أن هرقل قد خرج إليهم في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من قبائل العرب، فقال رجال من المسلمين: نكتب إلى رسول الله، فنخبره بأمر عدونا، فإما يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له.

فقام فيهم عبد الله بن رواحه، قائلا:

- يا قوم، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيل، ما كنا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فإنما هي إحدى الحسينيين: إما الظهور، وإما الشهادة.

وأثارت كلمات ابن رواحه الحمية في النفوس، وقالوا:

- قد والله صدق ابن رواحه.

وساروا إلى قرية يقال لها مؤتة فلقوا حشود هرقل، ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والعدة، وعلى رغم ما رأوا قاتلوا جند هرقل قتال الشهداء، فقتل زيد، وتناول منه جعفر الراية فقاتل، فقطعت يمينه، فأمسك الراية ببساره، فقطعت يساره، فأمسك الراية بعضديه، فشطه رجل من الروم بسيفه فشقه نصفين، فتناول ابن رواحه الراية وتردد قليلا، ثم أقدم فقاتل حتى قتل، فسقط اللواء، فاختلط الجند، وانهمز المسلمون، وكروا متراجعين، فالتقط اللواء ثابت بن أقرم ورفعها عاليا، وصاح:

- إلى أيها الناس.

فالتفت حوله الجند فخطب فيهم قائلاً:

- يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم.

قالوا:

- أنت.

فدفع باللواء إلى خالد بن الوليد، وقال:

- خذ اللواء يا أبا سليمان.

وتناول خالد لواء المسلمين ودافع، وثبت فارتد الكفار، وحل الظلام فتوقف القتال.

وفى ذات اللحظة، كان نبي الله ﷺ يجلس على المنبر وحوله صحابته، فأخذ يصف لهم ما يحدث للمسلمين، فنبأهم بموت زيد شهيداً، ثم بموت جعفر شهيداً، ثم تغير وجهه قليلاً وسكت، ثم قال وقتل ابن رواحه شهيداً، وعقب قائلاً: لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سر من ذهب، فرأيت سرير ابن رواحه فيه ازورار عن سريري صاحبيه، فقلت: عم هذا؟. فقيل لي: مضياً، وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى.

وقام رسول الله ﷺ من مجلسه، وخرج شاقاً طريقه إلى دار جعفر، ولما وصل، استأذن من أهلها،

ثم دخل على أسماء بنت أبي بكر، امرأة جعفر، فقال لها:

- يا أسماء أين بنو جعفر؟.

فجاءت بهم إليه، فضمهم الحبيب ﷺ إليه وشمهم، وهو فى غاية التأثر، ثم زرقت عيناه فبكى، وقال:

- اللهم إن جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما أخلفت أحداً من عبادك فى ذريته.

فقال زوجة جعفر:

- أى رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شىء؟.

فقال ﷺ:

- نعم، قتل اليوم، يا أسماء ألا أبشرك؟.

قالت:

- بلى، بأبى أنت وأمى.

قال ﷺ:

- فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة.

وارتعد بدن أسماء، وهى تحاول أن تخفى حزنها وتتحمل مصيبتها، للحظات، ثم بدأت تصيح،

فاجتمعت إليها النساء، فقال لها رسول الله ﷺ:

- يا أسماء، لا تقولى هجرا، ولا تضربى صدرا.
وذهب الحبيب ﷺ إلى ابنته فاطمة، فقال لها:
- اصنعوا لآل جعفر طعاما، فلقد شغلوا عن أنفسهم اليوم.
ولما كان الغد عدل خالد من أوضاع الجند، فجعل اليمينه مكان اليسرة والميسرة مكان اليمينه،
فلما رآهم جند هرقل فزعوا ورعبوا ومالوا منهزمين، فناور خالد رضى الله عنه، ثم عاد بجند الله إلى
المدينة سالمين.
فلما رآهم الناس، أخذوا يرمونهم بالتراب، ويقولوا:
- يا فرار، أفررتم فى سبيل الله.
فكانوا يسارعون إلى بيوتهم ويغلقون عليهم الأبواب فلا يفتحون لأحد، فأرسل إليهم الحبيب ﷺ
رجلا رجلا، وصار يقول لهم:
- أنتم الكرار فى سبيل الله.
وحيث بلغت مقولة رسول الله ﷺ إلى أسمع المسلمين، كفوا ألسنتهم، وتحفزوا مترقبين تحقق بشاره
نبي الله ﷺ، ليروا إخوانهم كرازا على أعداء الله.

□□□